من أول هيعة

مذكرات من حياة الشهيد أبو بكري الحلبي

بقلم
عبد الصمد بوعبوز

المحتويات

تقديم ٤
مقدّمة المؤلِّف ٨
بيـن الرشـــاد والتيـــه ١٠
رغيف الخبز ١٤
خندقـي قبـــري ١٦
ليته سكت ٢٠
صناعة الأمل ٢٢
العيديّة ٢٥
عمود الإنارة ٢٧
طفولة رجال ٢٩
لا تثق في عقلية المقاتل ٣١
شجرة الكينا ٣٣
المحارب الهجين ٣٧
البدلة العسكرية ٣٩
رجال تحميهم وسند يُعليهم ٤١
التحضير المسبق ٤٤
خارج الأسوار ٤٧
مكالمة هاتفية ٥٠
شوهد من قبل ٥٤
لعلَّ وعسى ٥٧

التوءم..... ٦٠
الوقف..... ٦٤
المرافقة..... ٦٦
وجبة الشاورما ٦٩
الطمع ٧٢
صندوق الكرز ٧٥
اللهُمَّ فاشهد ٧٩
كلمات وآثـــار..... ٨١
الغريب..... ٨٣
حقُّ اليقين ٨٥
ما بعد الرهان..... ٨٨
الوصية ٩٤

تقديم

بقلم م.محمد أبو النصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى:

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

[الأعرَاف:١٧٦]

على مر العصور والأزمان كانت قصص السابقين ملهمًا محفِّزًا على فعل الخيرات، دافعًا يوقد نار الحماسة في القلوب، زاجرًا ينهى النفس عن مزالق السوء... لا في ثقافتنا الإسلامية بل في كل الثقافات وعند مختلف الشعوب، ولهذا اهتمّت كل أمة بصناعة ذاكرة تاريخية مُلهِمةٍ لأفرادها، تحفظ هوية تلك الأمَّة وتزيد عصبية أفرادها وتدفعهم إلى التضحية من أجلها...

ونحن -معاشِرَ المُسلمين- كان هذا ديدن الكتاب من سلفنا الصالح، فدونوا لنا التاريخ، وكتبوا السير والمغازي، وترجموا لأعلام هذه الأمَّة من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم ممن تركوا أثرًا في التاريخ...

ولأنّ العقل البشري يجنح دائما إلى البحث عن مبرِّرٍ ليُبقي الإنسان في دائرة الراحة بعيدًا عن الكَدِّ والتضحية والبذل... كان غالبًا على العقول البشرية أن تبرِّر عدم التأسي والتقليد لسير السابقين الأقدمين باختلاف الزمان وتغيُّر النفوس والطباع، ولذلك كانت القصص الأقرب زمانًا والأكثر معاصرة أمضى منفعةً وأعمقُ أثرًا في النفوس.

ونحن في ثورتنا السورية -وقد قاربت أن تتم عامها الثاني عشر- كان من عوامل ضعفنا الرئيسة: عجزنا عن صناعة رموزٍ يلتف الناس من حولها، ثم ما لبث أن تعدّى ذلِك إلى فقد الرمز حتى من الأبطال الراحلين والشهداء والمُحلِّقين في سماء الرفعة والسمو، مِمّن تلهِمُ أخبارهم الشباب وتثيرُ مآثرُهم الحماسَ وتزرعُ الأمل بخيرية هذه الأمَّة...

ولئن تأخر السوريون المظلومون عن ذلك، فلقد سبقهم أعداؤهم الطائفيون الحاقدون إلى ذلك، فتراهم ينشرون القصة تلو الأخرى عن أعيان مقاتليهم وجنودهم فضلا عن قادتهم، يريدون بذلك إلهام من بعدهم ودفعهم للاستمرار على ذات الطريق.

ولعلَّ هذه الرواية التي كتبها أخونا عبد الصمد من القلائل بل ربما هي الأولى في بابها والتي تحكي لنا مشاهد من حياة بطل حقيقي من أبطال ثورتنا السورية، بطل شجاع بأخلاق محمَّدية، عاش بيننا يوم كنّا في قرية "أورِم الكُبرى" من ريف حلب الغربي، وقد كان تقبله الله جارًا لي تبعد داره عن داري أمتارًا معدودةً فقط، خفيٌّ تقيٌّ -نحسبُهُ والله حسيبُه- حُقَّ لمثله أن تكون قِصته ملهمةً لقافِلة الجهاد والثورة على أرض الشام الحزينة..

ولئن حاز "أبو بكري" تلك الأوليَّة بما ستقرؤون بعضًا عنه في الصفحات التالية، فلا ننسى الشكر لأخينا عبد الصمد الذي حاز الأوَّليَّة بالسبق للكتابة في هذا الباب بهذا الأسلوب البسيط الجميل المؤثِّر، هذا فضلًا عما لمسته من وفاءٍ لقائده الشهيد، قلَّ نظيره في زمنٍ عزَّ فيه الأوفياء، وما ذاك إلّا لخيرية في الجندي كما كانت في القائد المؤثِّر، ظهر أثرها بكلماتٍ صادقة خفَقَ لها القلب وجرى منها دمع العين، شممت بها عبق كلِّ ذرة ترابٍ طيبها دم الشهداء

في حلب وأريافها، تلك التي انحزنا عنها ونسأل الله أن تكون لنا عليها كرَّة وإليها أوبة حميدة إن شاء الله.

لا أريد أن أطيل أكثر من هذا فأشغلكم عن الرواية بطول المقدِّمة ولكنني أختِم قائلًا بأنها باكورة أعمالٍ فتحت بابًا لنوعٍ مهمٍ من الأدب السامي الذي انشغل عنه أدباء ثورتنا السورية وكُتَّابها... نسأل الله أن يهيئ له أقلام صدقٍ وعدل...

وإلى صفحاتٍ مشرقة من سيرة بطلٍ من أبطال الثورة السورية.

كتبها محمّد أبو النّصر
في أعزاز العِزَّة
٢٧ / ربيع الآخر / ١٤٤٤هـ
الموافق ٢١ / تشرين الثاني نوفمبر / ٢٠٢٢م

بطـاقة هويـــة

الاسم

عبد الكريم بن محمد بن محمود عبيد

اللقب

أبو بكري

تاريخ ومكان الولادة

١٩٨٠/١/٥م، حلب

تاريخ ومكان استشهاده

٢٠١٩/٧/٢٩م، قرية الجبين ريف حماة

المسؤولية

قائد لواء الفتح المبين

مقدّمة المؤلِّف

حُمل الإنسان في بطن أمه وهناً على وهن يخوض غمار المجهول، يحاصره الضيق، ويكتنفه الضعف، ثم ينتقل إلى عالم فسيح ينهل من تجارب الحياة؛ ليتعلم فنون البقاء ومسالك الارتقاء، بين حَمل ورضاعة كما في قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥]، اخترت على إثرها رواية تحمل في طياتها ثلاثين قصة تحكي عن شهيد -بإذن الله- هو قائد لإحدى الكتائب المجاهدة في الشام، تختزن فيها مجرياتٍ جهاديةً تجعلك تسافر مع شخصية فريدة يحتاج من يصاحبها إلى زاد موسى -عليه السلام- في رحلته مع الخضر، لِيُميط اللثام عن حقائقَ من البذل، والصدق والصبر، ويستكشف بحار الأنوار، ويبرز الوجه الحقيقي للثورة والثوار

قصص لم أُثقلها بتكلّف العبارة، وحشو الألفاظ، وهي صافية أصيلة لم أزد فيها على ما حصل في تلك الأحداث، فالتعابير الأدبية والتراكيب الجُمَلية التي استعنت بها في الكتابة ليست حروفاً صمّاء نسجت من كلام لتبرز الحدث بقدر ما هي صورة واقعية لحكاية سطرت بالتعب والتضحية، نُقلت بحذافيرها دون مبالغات أو إرهاق لهذه الورقات.

لقد تركتُ مشاهد على رفوف الماضي لم أكتب عنها، بالرغم من أني شهدتها بعيني؛ خشية أن يقال عنها إنها من وحي الخيال، أو أضغاث أحلام، وطمعاً في أن تكون هذه السطور زاداً وذخيرة يقتدي بها الرفقاء، ويقاتَل بها الأعداء.

دارت أحداثها بين معسكر الجُندية ومحرابِ العبودية، أختصر رحلته في هذه الدنيا، بسطورَ قلائلَ، لا تَفي بحقه، تلك هي صبغة إنسانية تحمل رسالة ربانية..

رحلته قصيرة، لكنه اجتاز عقبات عنيفة في ميدان النِّزال، وتكسّرت على صخرة إرادته آمال أشباح اليأس والخذلان.

ليس هدفي إبراز رجل من رجالات الثورة السورية، لأصنع منه الفخر والكبرياء، فثورتنا مصنع الرجال قد طفحت منها قصص العز والتضحيات، ومواطن العظمة الإنسانية، بيْد أني حرصت على تقديم نموذج يصلح ليكون من سفراء الثورة بلا دويّ ولا صخب، من الذين إذا حضروا لم يُعرفوا، وإذا غابوا لم يُفتقدوا، نأنس بهم دون مجالستهم، ونعيش مع آثارهم بالرغم من غيابهم، ونطرب لسماع ألحان حكايات كانوا هم أبطالَها .

١

بين الرشاد والتيه

بين الرشاد والتيه

عاشت الثورة حالة عسكرية بين ركام الكرِّ والفرّ، وفي معارك حماة سنة ٢٠١٧م بين المجاهدين والجيش الأسدي من جهة، وبين من لقّبوا أنفسهم الدولة الإسلامية "داعش" من جهة أخرى، سمعنا آراء مختلفة حول الصدام مع العدو، فمنهم من قال إنها مصيدة جغرافية ومهلكة ماحقة...

من عاش بين الكلمات والشعارات فقد اختار العيش على هامش الحياة، قرّر صاحبنا أن يستكشف أراضي ريف حماة، وصحبني معه في سيارته لكشف لثام الواقع الجيوعسكري هناك...

انطلقنا في طريق معبّد بالشوق، ممزوج بالخوف من نار المجهول... طريق طويل... يمتد لمئات الأميال...يشقّ مساحة هائلة من أمواج التربة الحمراء... لا ندري ما محطتنا المقبلة... ما أجمل التيه... لم نعد نريد إحداثيات ولا خرائط، نريد فقط أن نسبر أغوار التيه ونستكشف مكاناً تلو الآخر.

قال لي: لمن نترك هذه الأراضي دون الدفاع عنها؟! في دهشة تزداد كلما قطعنا الأميال.

التقينا بمرابطين أوزبكيين تعرّف إليهم، صاح أحدهم عليه أبو بخري... أبو بخري... (أبدلَ الكاف خاءً) وهو يضحك من لهجتهم البسيطة...

قال صاحبنا: لن نسير متراً واحداً آخر حتى نرجع إلى ديارنا في الحال، نسي لفح البرد والحاجة للتزوّد بالطعام والشراب.. كان الهمّ الوحيد؛ متى نرجع كي نعود مرة أخرى ليملأ ما رآه من أراضٍ خالية وثغور خاوية حسب قدرته المادية والتجهيزات العسكرية المتاحة، وبعد يوم واحد كان في الميدان قد غرس

مَدافعه بين شجر الزيتون، وجنودُه موزَّعون على الثغور، يذهب ويجيء، يظهر ويختفي، يتقصّى الأخبار ويقتفي الآثار ويحاكي الأحوال...

ترك هناك بصمة عنوانها «ما من امرئ يخذل امرأً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته»[1].

وبعد سنتين ونصف عاد اللانظام الأسدي تحت قيادة الروس بهجمة أخرى على المحاور ذاتها، لكن بوحشية أكبر هذه المرة، لم يكن اختيار المكان اعتباطياً، بل أريد له أن يكون ميداناً لمواجهة حامية.

أرضٌ بات يعرفها كما يعرف كف يده.

ماذا سيفعل صاحبنا، هل سيُكمل القتال بعد ان استُنزفت قوى الفصائل؟

ماذا سيفعل وقد علت أصوات أصحاب نظرية ألم نقل لكم! وتشابكت معها آراءُ جديدة زعمت أنها مؤامرة قد حيكت خيوطها بكل دهاء!

حتى أكون صريحاً، لم يكن قرار المواجهة بعقله بقدر ما كان نابعاً من عنفوان عاطفته وضميره الحي وقلبه الذي لم يكن لشجاعته وجسارته أن تغيرا من طبعه الرقيق شيئا.

قرر صاحبنا المواجهة بجرأة كبيرة، كان واضحا أنه لم يكن ينظر إلى قوة عدوه بل إلى قوة إيمانه.

لاقت خطته التي شارك بها رفاقه بعض الجدل والإعجاب، وأثارت بعض الانتقادات وحصدت بعض عبارات الثناء، وجميع المقربين منه كانوا يعرفون أنه لا يمانع أن يختلف معه الآخرون ويوجهوا له الانتقادات أو أن يحاولوا

---

١ حديث رواه الإمام أحمد في المسند وحسّنه الشيخ الهيثمي والأرناؤوط.

تصويب أخطائه، فقد كان لديه من التواضع ما سما به فوق كبر النفس وشهوة السلطة والاعتداد بالرأي.

كلما قام سوق الجهاد والمواجهة كان الشهداء أسعد الناس فيه، وبالرغم من أنه لم يكن يجهل قوانين الحرب، إلا أنه كان يعظم قانون السماء الذي يسلم به، كانت المعارك هناك قاسية والأيام عصيبة بمعنى الكلمة، التخبّط والفوضى يكتنفان صفوف الفصائل، لذلك بدأ بالبحث عن محطة إشارة لاسلكية لكي يشتريها قبل الانطلاق، وأعدَّ معها ما يقارب أربعين قبضة "موتورولا"، فالتجربة السابقة أكسبته خبرة تحديد الخلل، كان يعمل كما لو كان يستحضر مقولة جابر ابن حيان: "من لا يجري التجارب، لا يصل إلى أدنى مراتب الإتقان، فبالتجربة كمال العلم".

أسَّس غرفة عمليات مصغرة في قرية جرجناز؛ كي يجري المحادثات مع جنوده بطريقته الخاصة، ليكون قريبا منهم وعلى تواصل معهم، وإطلاع دائم، ودراية كاملة في حال وقوع عطل داخل إشارة عمليات تلك الجبهة.

في كل مرة كنت أستسلم فيها للشرود، كان السؤال يقفز في ذهني دائماً،كيف بمقدور شخصية بسيطة ومتواضعة وعقل بحجم قبضة اليد يستطيع أن يحمل همّاً أثقل من الجبال ويتحمّل متاعبه ومشقّته التي سكنت حنايا أضلعه؟!

في البداية لم أجد له تفسيراً حتى أبحرت بعيداً عن سطح الحدث لأغوص في أغوار تلك النفس العزيزة والروح العطرة، فلمست أجلَّ معاني الإخلاص والتضحية، وأبصرت فيه الاستعانة بالله، التي انقشعت معها ظلمات الوهن وأسقطت عنه أركان العجز.

٢

رغيف الخبز

رغيف الخبز

الحرب كسر للعظام وحصار للعقل ومطرقة للتجويع، وهول يحيط بمن يخوضها.

أحيانا تكون البطون الخاوية أقسى من القذائف المتهاوية، والظروف الصعبة قد تجعل من المجاهد الذي لا توهنه الدبابات.. يضعف ويسقط كالشمس وراء الجبال.

كثير منا يحرص على أوراد يلازمها في حياته بعد صلاته أو كأذكار الصباح والمساء، أو البقاء في المسجد إلى ما بعد شروق الشمس، أو صلة الرحم أو عيادة المريض....

وأما صاحبنا فكان توزيع الخبز على شباب كتيبته في بيوتهم وِرده الذي لا يهجره، ولا ينفكّ عنه، والباب الذي لا يغلقه، والعمل الذي لا ينصرف عنه طيلة السنة.

يستيقظ كل يوم على واجب يراه مقدساً، فيبذل ماله وعلاقاته، يسعى لتأمين أكياس القمح من مساعدات أصحابه أو من استثماراته، وبالرغم من الضائقة المالية التي تعصف بالكتيبة أحياناً فإنه لا يترُك وِرده مرة، حتى ولو لجأ إلى الاستدانة من صاحب الفرن، وقد بلغ الدَّين ذات مرة ستة آلاف دولار في سجل الفرن، لكنَّها تبقى في عينيه أجمل لحظات السعادة والهناء، تلك الأوقات التي يصرفها في البحث عن رغيف خبز دائم لجنوده.

رغيف الخبز مادة الحياة عندما تزهو بألوان الحرية، فالخبز الذي يكون ثمنه العبودية، كسمكة الزينة المحبوسة في حوض صغير شفاف يعكس ديكوراً جميلاً داخل البيت، في أي لحظة يمكن لصاحبه أن يغيّره.

٣

خندقي قبري

خندقي قبري

كم هو جميل أن تجلس في بيتك وتستمع لأنشودة هادئة تثير أشواقك وتهيج أشجانك وتثير أحاسيسك وتسري معها القشعريرة في جسدك تتجدد فيها روحك، وتبعثُ داخلك معاني العزة والرجولة تحت سقف السماء المرصّعة بالنجوم، والأجمل من ذلك أن تعيشَ حياتك واقعاً وحلمك حقيقةً.

الجهاد حلاوةٌ إيمانية وحدث موضوعِيٌّ يبرزُ في الميادين، وليس مجرد حديث عاطفي تمليه الرغبة والأماني، إنه نفضٌ للغبار المتراكم على الصدور الذي أظلمت منه القلوب، وانحنت تحت وطأته الكهول.

كثيراً ما كان ينشد صاحبنا "خندقي قبري" التي تذكّره بماضيه في الزمن الجميل، حفظ كلماتها عن ظهر قلب، وعندما كان ينشدها تشعر كما لو أن كل ذرة من ذراته تهتف بكلماتها، ظلَّ يعيشُ ألحانها إلى أن دخل عليها عزف المدافع وزخّات الرصاص إبَّان الحملة الشرسة في صيف ٢٠١٩م على ريف حماة.

في تلك المعركة، أخذ بعنان فرسه وانطلق مجاهدا يحمل سلاحه في يده وإيمانه في قلبه، غدَا يقارع الأعداء بلغةِ السِّنانِ لا اللسان، يحفّز شبابه وينشد على مسامعهم خندقي قبري وقبري خندقي.

تحرّك الركب المحمدي كاسراً صمت الليل البهيم يقصد تلك الجبهة الحامية، وبعد أن وصل قرية الجبين بريف حماة قبيل الفجر بقليل تمركز في مقدمة صف المجاهدين ورأسِ حربتِهم لصدّ العدوان في أشرس هجمة للعدوّ مرّت على تاريخ الثورة.

ومع تسلّل خيوط الشمس الذهبية وانقشاع سحب الليل أقبلت طائرات المكر والخديعة، وراحت ترقب مواقعهم لتمطر عليهم حقدها بصاروخ ملأ الأرض ناراً ولظىً.

نجى صاحبنا، لكن أرواح جنوده الذين قاوموا حتى الرمق الأخير توزعت تحت حبات التراب بجانبه، وفاحت في الأرض التي ضمتهم رائحة طيبة شيّعت أرواحهم إلى السماء، الأرضُ التي تحفظ من كان يصول فوقها ويدافع عنها لتشهد لهم يوم القيامة، خرج صاحبنا وخرج معه كل من كان لا يزال على قيد الحياة، ولم تتمكن أنياب الموت وبراثنه من القضاء على رمقه الأخير، بعد قصف ناري استمر لساعات يدكُّ قطعة صغيرة من الأرض لا تتعدى مساحتها عشرات الأمتار.

ظل أبو بكري يكرر محاولاته بإخراجهم من باطن الأرض رافضاً ترك جثامين جنوده لها، لكنّها هي الأخرى رفضت أن تطلق سراح أجسادهم الطاهرة، كما لو أنها حرصت هي الأخرى على أن تحظى بشرف احتضان الشهداء والتعطر بدمائهم، لكنه بقي يحاول ولسان حاله يقول:

لم تَثنه تلـــك المناصب كلُّها ... قتل الشـــهيد فُجُدِّدَتْ آلامُ
ماذا أقـــول وإنـــه قد هزني ... أم أنهـــا الأشـــعار والأنغامُ
ماذا أقول وهل ســـتغني قولتي ... ويسومنا خســـفاً بها الظُلّامُ
هذا الشـــهيد مضى وإنا ها هنا ... ما كان في دار الهـــوان يضامُ

وبعد برهة من الزمن تلقّى من غرفة العمليات أمراً بالانسحاب بالتزامن مع سقوط أطراف الجبهة ناريّاً، ولكنه رفض الأوامر وأبى إلا أن يحاولَ ويناورَ مستحضراً قولَه صلى الله عليه وسلم: «ليس لنبيٍّ إذا لبس لَأْمته أن يضعها حتى يقاتل»[1]، كان عزيزا عليه أن يترك جثامين رفاقه الطاهرة لميليشيات بشار الأسد، ولذلك قرر الصمود والمواجهة، ومع انقطاع خطوط الإمدادات

١ رواه البخاري عن جابر بن عبد الله.

وشدة الجوع والعطش، كاد أن يشرب ومن معه البولَ بسبب الجفاف الشديد تحت وطأة التعب والعطش، والأمل مظانّه، إلى أن تمكن منه صاروخ غادر أسقطه على حافّة الخندق مصاباً ينزف حتى وارى جثمانَه الثّرى، ثم تدحرج إلى باطن الخندق ليتحقّقَ مراده، ويده على جبهته في وضعيّة تشبه نومَتَه التي اعتادَ عليها حين يستلقي ليرتاح من التعب المضني في الجبهات، ليغيب بعد ذلك في خلد الجنّات إن شاء الله.

أُمّة لا تبذل من دمائها لا تستحق العيش

صورة أبو بكري وهو نائم

٤

لیته سکت

ليته سكت

في طريق العودة من مهمة عسكرية جماعية لم يكن فيها الجهد والتعب الكثير، وقعت عيوننا على مطعم يشوي لحم الجمل، فهمست في أذن صاحبنا قائلاً: حبّذا لو تشتري لنا شطيرة منه.

فأجابني غاضباً: أأشتري لكم لحم جمل وشباب الكتيبة لا يملكون خبزاً يأكلونه في بيوتهم؟!

فعلمت أني هتكت عورة الزمان والمكان ليتحرّك ضميره مع تلك الإجابة، وسرعان ما تفاعل معها وبدأ بإلقاء كلمات على مسامعنا عن الترف والإحساس بالغير ومشقة الجهاد بعد أن سرد قصة عمر رضي الله عنه المشهورة "أو كلّما اشتهيت اشتريت؟!"... حتى قلت: ليته سكت!

ويا ليتني ما تكلَّمت.

٥

صناعة الأمل

صناعة الأمل

أحدثَ كتاب "آيات الرحمن في جهاد الأفغان" للشيخ عبد الله عزام[1] شهرةً واسعة بين المجاهدين، واكتسب مقروئية عالية، والبعض الآخر شكّك في كل الروايات والكرامات التي تضمنها الكتاب.

بين هذه السطور قصة يرويها أعيان بلغوا حدّ التواتر في نقلها، تحكي عن آية تحدّت العقبات وشقّت الظلام وقطعت الأميال، ومن هنا تبدأ الرواية، إذ تمرّس صاحبنا الرماية على المدفع فترة طويلة، ترافقه زوادته المؤلفة من بوصلة وميزان صغير في كل خرجاته الميدانية، وخاض تجربة أكسبته خبرة لا يستهان بها.

وصل إلى قرية الحميرات بريف حلب الجنوبي سنة ٢٠١٥م، وجهّز المَرْبط لصدّ هجمة شرسة، وبعد أن تفقّد معداته لم يجد الميزان والبوصلة، كان من الواضح أنه نسيها عندما كان يجمع معداته على عجل قبل أن يأتي إلى الجبهة، فطفق يلقي اللوم على نفسه ويؤنبها على هذا الخطأ، وفي تلك الأثناء..تناهى إلى مسامعه من جهازه اللاسلكي تحذيرات عن رصد دبابة للعدو تصول وتجول وتندفع للأمام تجاه خطوط التماس، وأن على أحد إيقافها، تحمّس صاحبنا بعد أن سمع الخبر، وقال لنفسه بأنه هو الشخص المقصود، واستغرق في مجموعة من الخواطر والأفكار التي داهمته فجأة.

هدف ثمين.. أوقات عصيبة تحوم به.. ينوبها حسرة العجز الذي خيم على الجميع.. ويعصف بها ضغط الأحداث في الميدان، ينظر إلى المهمة الموكَلة إليه

---

١ عبد الله عزام من أشهر المجاهدين في أفغانستان ضد السوفييت، ولد في فلسطين سنة ١٩٤١م، وتخرّج في كلية الشريعة /جامعة دمشق، وحصل على الدكتوراه من الأزهر سنة ١٩٧٣م. عمل مدرساً في كلية الشريعة بعمان، وفي سنة ١٩٨٠م صدر قرار بفصله، ثم بدأ العمل الجهادي مع الأفغان سنة ١٩٨٢م. وفي عام ١٩٨٩م مرّت سيارته فوق لغم فاستُشهد رحمه الله.

فيراها ضخمة ثقيلة، ثم يلتفت إلى وسائله ومعداته فيجدها قلية لا تفي بالغرض، يتأمل فيمن حوله من المقاتلين ويقرأ العجز والحيرة على ملامحهم بوضوح، لكنّ عقيدته لها رأي آخر.

دفعة الأمل التي بثها الله فيه صرفته عن البحث في أخطائه التي أوصلته إلى هذا المأزق، فتوقفَ عن لوم نفسه، واستعاد نشاطه ورباطة جأشه، كيف لا.. ولطالما تعلم وكان يُعلم جنوده ويذكرهم أن يحسنوا الظن بالله.

إذا استنفذت الأسباب فاذهب الى مسبِّب الأسباب، قال هذا في نفسه ليستشعر قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [التوبَة:١٠٥]

قيل في الحروب قديماً: تنتهي المعركة عند أول طلقة.

وضع أبو بكري الحشوة الدافعة في المدفع، وبدأ بتوجيهه تقديريًا نحو موقع الدبابة بعد ما سمع من المرابطين موقعها، تأكدَ من تموضع القذيفة في مكانها بشكل صحيح، وأشعل الفتيل، وما هي إلا ثوانٍ .. وتنطلق القذيفة إلى عنان السماء نحو الهدف هادرةً كالرعد، تطير على أجنحة الملائكة، وأكتاف حسن ظنه بالله، وترافقها عين الفتية المجاهدة لتسقط في منتصف الدبابة، مصدرة دويًا هائلًا، وتندلع فيها النيران.

ارتفعت أصوات التكبير في الميدان.. الله أكبر.. الله أكبر.

"نعم .. الله أكبر" .. قال هذا في نفسه، وتابع: الله أكبر من همومنا وضعفنا وجوعنا وأخطائنا .. الله أكبر من أعدائنا وطائراتهم وأسلحتهم، الله أكبر من خوفنا.

وهتف أبو بكري من أعماق قلبه: ومن أصدق من الله قيلًا!

الأمل يصنعه رجال أفذاذ، وبينه وبين اليأس صبر لحظة قد تتحول إلى حكاية نجاح ترويها غداً في المذكّرات.

٦

العيديّة

العيديّة

أصبحت الألوان قاتمة، والأحوال تثقل الكاهل، والحرب ظالمة.

يطل علينا العيد، ليرفع ستار المعاناة وحكايات المقاساة، وينسينا الماضي لنعيش اللحظة.

مشهد المجاهدين صباح العيد في الخندق المسقوف بالدواليب، والتراب يغطي بعضها، بينهم إبريق اسودَّ من السُّخَام[1] يغلي على نار الشوق، تتناوب عليه المجموعات والكتائب طيلة السنوات، لم يسبق أن وقع في ذهن كاتب سيناريوهات.

ينزل صاحبنا إليهم باكراً، ليُصلّي معهم صلاة العيد، ويصنع الفرح بينهم في مجلس يدوي بالأهازيج الروحية الدينية يختمها بأناشيد جهادية.

لا زالت العيدية عادة تاريخية تتجدّد معنا بحلّة مغايرة إلى جانب عيدية صلة الرحم، والزوج لزوجته والأب لأطفاله.

تتبادل نظرات الانتظار بين المجاهدين تحمل شيفرة مُورْس لا يفهمها إلا صاحبنا ليُخرج من جيبه العيدية في مظاريف مغلّقة ويوزّعها على المرابطين.

---

١ سواد القدر من جرّاء دخان النار

٧

عمود الإنارة

عمود الإنارة

عندما كنت في عمر الثانية عشرة سنة، كان والدي يسمح لي بالخروج إلى زقاق الحي للعب مع أبناء حينا برهة من الزمن بين أذان المغرب والعشاء، وبجوار محل كَبينَة للاتصالات نجتمع حول عمود الإنارة تحت ضوء خافت آتٍ من مصباح متهالك يضيء أسفل العمود بين جمع من الشباب يكبروننا في العمر ملتفّين حوله، كان أحدهم جامعياً يحكي لنا قصص "سيدي محمد بن عبد الكريم الخطابي"[١] بأسلوب ارتجالي باللغة الأمازيغية عما سمعه من جدّه وما قرأه في الكتب.

من القصص التي سمعتها منه ولا زالت تعبر مخيّلتي على شريط الذكريات لجيش الخطابي أثناء مقاومة الاحتلال الإسباني، أنّه كان يدفن السلاح بالليل في الوديان والجبال تحت الصخور والتراب ليستعين به في القتال عندما تنزل ساعة الشدة واللحظات الحرجة.

شاءت الأقدار أن ألتقي بصاحبنا أبو بكري في أرض الشام المباركة لأعيش حكايات الخيال في ذهني الطفولي واقعاً في الثورة بين حصون حلب وقلاعها، كان يشتري السلاح ويدّخره ويترقّب بعين متبصّر لأحوال السوق كلما سنحت له الفرصة.

جعل من السلاح قطعة مدفونة تحت الأرض في عدة مواقع وقرى تحسّباً لسقوط المناطق المحررة، كي يتسنى له العمل ضد العدو واستنزافه من داخل صفوفه.

---

١ محمد عبد الكريم الخطابي زعيم مقاومة الريف بالمغرب ضد الاستعمارَين الإسباني والفرنسي، وُلد في أجدير سنة ١٨٨٢م، توفِّي في القاهرة سنة ١٩٦٣م.

٨

طفولة رجال

طفولة رجال

ازدواجية الجهاد شبيهة بازدواجية المشاعر؛ فهي مقترنة بالرجولة والكفاح يصاحبها طفولة ومزاح، فيها مواجهة ودفاع خيطت بنسيج متشابك من نزاهة ورواح.

كان صاحبنا رجل الميدان وأبا العيال، اختال عند الحرب إذا بدأت، واستكان بين جنوده إذا انتهت، يروِّح عن نفسه وعنهم وهج التعب ولظى الحرب، وما نفع القلبَ مثل مزحة يكسر بها ساعات الجد، هي تشبه لحد كبير شربة الماء البارد وسط الهجير الحار، فكان يصب ماء السكينة فوق قلوبهم المتعبة ونفوسهم القلقة.

سنمرح كما يمرح الصغار، وبحجم المعاناة سيكون العقاب.

من عادته إذا أراد اللعب والمزاح بين أحد الجنود أمسكه من لحيته بشدّة وهزّها بقبضة يده حتى يسمع صراخ الشاب من الألم، ثم يدنو إليها ويقبّلها.

يلعب هو وأبو يحي ويتصارعان، ظلّ يتصارع القائد والجندي في مشهد طريف وهما اللذان قد أُصيبا في يوم من الأيام في حادث سير معاً دون أن يقدر أحدهما على هزيمة الآخر، تحايل عليه القائد وأمسك بلحيته وهو يصرخ من الألم ويتلوّى واغَوثاه.. واغَوثاه.. وبالجوار صديقه يضحك عليه، فترك الأول وظلّ يركض خلف الثاني حتى خلته تقطعت خيوط أنفاسه، يلهث بين شهيق وزفير.

دخل عامل للخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ من إحدى الولايات فوجده مستلقياً وصبيانه يلعبون على بطنه، فأنكر ذلك!

قال له عمر ﷺ: كيف أنت مع أهلك؟ قال: إذا دخلت سكت الناطق.

قال: عزلناك، فإنك لا ترفق بأهلك وولدك، فكيف ترفق بأمّة محمد صلى الله عليه وسلم.

ربيع الأبرار ونصوص الأخيار-٤/٣١٣

٩

لا تثق في عقلية المقاتل

لا تثق في عقلية المقاتل

التعويل على تفويض المهمة تشاغلاً بأخرى لم تكن من طبيعة إدارته؛ فقد يخون الأمين، أو تؤسر مجموعة، أو يتسلل إلى القلب بعض التردد مخافة هلاك نفس أو فراق عيال، فتكون التكلفة العسكرية لذلك باهظة.

من القواعد التي تعلمناها منه "لا تثق في عقلية المقاتل"، فهو لا يقصد بها التقليل من قدراته بقدر ما يعني بها التحقق من إتمام المهمة التي أُسندت إليه، ليخرج من حيّز الكلام إلى حيّز الواقع.

قال عمر رضي الله عنه: أرأيتم إذا استعملت عليكم خيرَ مَن أعلم ثم أمرته بالعدل، أكنت قضيت ما عليّ؟ قالوا: نعم. قال: لا، حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته، أم لا.[1]

وقف على الرصيف ينتظر من السائق إصلاح إطار السيارة، وما لبث برهة من الزمن حتى ركن بجانبه، فتربّع مقابلاً إطار السيارة ليتحقّق من عملية الإصلاح قبل الركوب، لا يفرّق بين تفاصيل صغيرة وأخرى كبيرة في المتابعة.

أمضى وقتا طويلا في إيجاد الطرقات الأكثر ملائمة للوصول إلى أماكن المهامّ البعيدة أثناء الانشغال، فوجد في إعداد التقارير الحل المناسب، ليطبع دفتر مناوبات تسجّل فيه كل حركة تقع على الجبهة القتالية أثناء الرباط.

بعد انتهاء المعركة يعقد اجتماعاً مستعجلاً يجمع فيه قادات الزُّمَر، ليتباحث في نتائج العمل ابتداءً من المسير وانتهاءً بانسحاب آخر رجل في المهمة.

إذا أردت أن تقوم بعمل ما حسناً فأدره بنفسك.

نابليون

---

١ السنن الكبرى - البيهقي - ج ٨ - الصفحة ١٦٣

١٠

شجرة الكينا

شجرة الكينا

ابتاع آلة تصوير، وعدل عليها فأضاف لها عارضة وأوصلها معها، وبحث في مكان الرباط عن موقع عالٍ يطلّ على معسكرات العدو، ليكون بمقدوره مراقبة تحركاته واكتشاف منافذه ومخارجه، فما وجد أمامه إلا شجرة كينا باسقة يُقدّر طولها بعشرة أمتار، كانت مناسبة تماما للغرض، طول كاف، ومجال رؤية بعيد المدى، ومكان لا يتوقعه أحد لإخفاء كاميرا مراقبة.

شارك جنود الكتيبة بالفكرة التي جالت في خاطره فعزم شابّ فتيّ من المرابطين أن يتسلقها كي يخفي آلة التصوير بين أوراق الأغصان، فجذبه صاحبنا إليه من بدلته العسكرية صارخاً في وجهه يعاتبه "ألا يكفينا ألماً استشهاد أخيك الشقيق في معركة الراشدين"!!

يظل الماضي عنده صفحة لا تمزق، يدون فيها تضحيات جنوده، لم يكن لينسى من سبقوه ممن قضوا نحبهم طيلة مسيرته الثورية، فهي محفورة في قلبه ومنقوشة في ذهنه وحاضرة نصب عينه.

***

الأمة التي تنسى المدافعين عنها ستنسى نفسها

كالفين كوليدج، الرئيس الثلاثين للولايات المتحدة

تسلق صاحبنا الشجرة رغم كسر قديم في حوضه لم يزل يؤلمه من وقت لآخر، يأبى الظهور في حالة العجز والضعف أمام جنوده، وبالرغم من خطورة الموقف في تلك المهمة التي يمكن أن تُكتشف، وعلى حياته التي يمكن أن تنهيها رصاصة من عدو يراقب أدنى حركة وسكنة، لكن لحظات الترقب والقلق انتهت بإنجازه للمهمة على أكمل وجه.

كثيراً ما اعترض جنوده على إقدامه الزائد، ومع تكرار المشهد علِموا أنّهم بايعوه على قتله.

يقول أسعد بن زرارة -رضي الله عنه- في بيعة العقبة الثانية:

أتدرون علامَ تبايعون؟

قالوا: يا أسعد أمِط يدك عنا.

قال: إنكم تبايعون على قتل خِياركم.

رسمت تلك الصرخات في صفحات وجه الشاب أسطرها، يرويها في كل لحظة فُتحت فيها صفحةٌ من سيرة قائده..

تموت الأجساد وتبقى المواقف حيّة وقاموساً يرجع إليه.. تحولت الصرخة في وجهه إلى همسة حنين بخياله.

ولـــئن أتـــاني في المنـــام خيـــاله
فالضيف في وســـط الفـــؤاد مكرّمُ

أن أنســـاه هـــذا محـــال زائـــل
فمقامـــه في ذا الفـــؤاد محتّـــمُ

وما حيلـــتي إذ ما ســـمعت حديثه
حار اللســـان وفي الـــكلام يلعثمُ

ســـيظلّ حبّـــك في فـــؤادي دائماً
ويصـــير هجـــري له محـــرّمُ

١١

المحارب الهجين

المحارب الهجين

اتصل به أحد رفاقه، وسأله عن مكانه ليقابله.

أجابه: أنا في مدينة الباب.

ماذا تفعل؟

توسطت في صلح بين زوج وزوجته.. ثم اعتذر عن المجيء إلى المقرّ.

بعد أيام مضت رفع سماعة الهاتف ليتصل به مرة أخرى

أجابه: أنا في مدينة عفرين.

ماذا تفعل؟

أساء أحدهم إلى أحد المشايخ فذهبت لمتابعة القصة وحلها.

لم يفقد الأمل من مقابلة صاحبنا، ومضت أيام قليلة ليعاود الاتصال به مجددا كي يقابله.

أجابه: أنا في جنديرس.

ماذا تفعل؟!

تعرضت عائلة كردية لنهب أموالهم على يد مجموعة من قطاع الطرق.

هكذا هو صاحبنا، كلما سمع هيعة أو فزعة طار على متن سيارته، تارة يخلع بدلته العسكرية ويرتدي ثوب المصلِح، وتارة أخرى يلبس لباس الشرطي، وتارة يضع نفسه قائد زمرة، وأحياناً تحسبه واعظاً مفوّهاً وخطيباً لا يُعاب...

من صاحَبه في رحلته، يخيّل إليه أنّ الصبر بلغ حدّه، ثم يكتشف أنّ حدوده أبعد من ذلك وأعمق.

١٢

البدلة العسكرية

البدلة العسكرية

يعيش الجندي المسلم في وعورة الجبال وظلمة الكهوف، وفي طيّات الأرض وقسوة الظروف، لكن له نفس سلسة القِياد، لينة العريكة، قلبه رقيق كنسمة صيف باردة، عقاله آداب الجهاد، فهو كالنحلة لا يخرج منه إلا طيّب.

يمشي صاحبنا بين جنوده بخلُق، يخفض لهم الجناح، يأكل من طعامهم، ويلبس من لباسهم...

قُتل ولم يُورِّث إلا بدلتَين قد بليتا في ساحات الجهاد والمعارك، يستبدل واحدة بأخرى طيلة جهاده، واحدة ألوانها متباينة تشبه ظروفنا المتقلبة، والأخرى خضراء فاتحة كلون النصر المأمول.

عاتبته زوجته يوماً عن تقصيره بحق نفسه، تريد أن تراه بحلة مغايرة ولو لساعة واحدة وهي تقول له متسائلة: لماذا لا تشتري ملابس جديدة تلبسها وقد منّ الله عليك برزق وافر؟!

أجابها في حضرة حال صدق سعد بن عبادة رضي الله عنه وهو يقول لنبينا صلى الله عليه وسلم: ما أنا إلاّ رجل من قومي: كيف لي أن ألبس جديداً وشباب الكتيبة لا يجد الواحد منهم ما يستر به سوءته، وأردف قائلاً: تركنا متاع الدنيا للساعين وراء حطامها واكتفينا من زخرفها بهذا القدر.

١٣

رجال تحميهم وسند يُعليهم

رجال تحميهم وسند يُعليهم

نشأ صاحبنا في بيئة محافظة، تشكلت هويته النفسية داخل مدرسة شرعية، متشبّعاً بأفكار صوفية ممزوجة بإيقاعات جهادية، ليترجمها سلوكاً وأثراً في مسيرته الثورية، ويكون نموذجاً فريداً قد جمع بين حبّ العلم وأهله وبين الجهاد وطريقه.

علم أنّ الطريق الذي سلكه يحتاج لمرشد يقود الركب إلى برّ الأمان، فوجده في أهل العلم سراجاً ومنارة تنير له دربه، سارع للتعرف إلى كبار أهل العلم وطلبته، ليصنع له مرجعية دينية، مدركاً أنّ صلاح الأمة بصلاح علمائها.

حاول جاهداً وصْل معارفه من قادة الألوية بالعلماء وتوجيهاتهم وساهم في دعم بعض مشاريعهم كالمعاهد الشرعية، ليتولى شؤونها المالية والإغاثية، كان بحق يسابق الزمن ويوصل الليل بالنهار في سبيل النهوض بالأمة باحثاً عن الدعم في الداخل والخارج.

بذل الغالي والنفيس في سبيل خدمة طلبة العلم وحفظ مكانتهم، وهو ما ورثه من المدرسة الصوفية العلمية وتشربه في صغره خلال مسيرته التعلمية.

بلغه أن شيخاً تعرّض للإساءة بالشتيمة بعد خطبة الجمعة التي انتقد فيها تدريس مادة القومية بالمحرر، في قرية تبعد عن مقره خمسة عشر كيلو متراً، وما كان له إلا أن ركب سيارته وحده دون مرافقة ولا سلاح وبدون أي مظهر عسكري أو نفوذ يستقوي به على الآخرين، وصل إلى عين المكان وترجل من سيارته ثم ذهب باتجاه المسيء ليخاطبه بلهجة شديدة وعبارة توجز ما يحمله بين أروقة أفكاره: "للعلماء رجال تحميهم وسند يُعليهم".

الفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات فكان الفقيه معلِّم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم؛ لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا.

الإمام الغزالي - إحياء علوم الدين، ج١ ص١٧ طبعة دار المعرفة بيروت

١٤

التحضير المسبق

التحضير المسبق

الحركة العقلية فقرة مهمة في تاريخ القائد العسكري الناجح، عندما تتزاحم الأحداث وتتراكم المسؤوليات تزداد الحاجة اكثر إلى اليقظة الذهنية والمحافظة على التركيز، فلاعب الشطرنج يقدّم الحجر وعينه على الحركة القادمة، أدرك أن الذكاء ليس العامل الوحيد للنجاح في التخطيط، بل يضاف إليه التحضير المسبق، فكان يولي التخطيط والإعداد المدروس اهتماما كبيرا.

يؤكد نابليون تلك الفكرة حينما قال: لم تكن العبقرية سبب اكتشافي لما يجب عمله في الظروف الحرجة بالنسبة إلى الآخرين، ولكنهما: التحضير، والتفكير المسبق، وردود الفعل الناجمة عنهما.[1]

كثيرة تلك المواقف التي يظهر فيها التحضير المسبق عند صاحبنا بين ثنايا أفكاره، فحين ذاعت الأخبار بين الناس عن نية العدو اجتياح المحرر من قطاعات ريف حلب، عقد صاحبنا العزم، وباشر تعبئة كتيبته، وعمل على رصّ صفوف جنوده، وبدأ في علمية التحضير والتجهيز.

علم أن الروح القتالية قد تتعرض إلى زعزعة، وقد تخور قواها إذا لجأ العدو إلى بعض حيله الخبيثة المعتادة في قصف المدنيين العُزَّل خلف خطوط الجبهة؛ حتى يضغط على المقاتلين ويضعف عزيمتهم القتالية.

هذا ما جعله يفكر في نقل عوائل جنوده قبل بدء المعركة إلى مكان آمن، حتى لا تفقده الأحداث التوازن والسيطرة على كتيبته وكي لا يخسر ثقة رجاله.

من لم يفكر في العواقب لم يأمن المصائب، ولم يسلم من المعاطب.

---

١ لمحات في فن القيادة الصفحة ٩٩

درس جاهزية الآليات، وجمع استبياناً يشمل عدد أفراد العوائل، وأعمار أطفالهم، وجهّز مكان المأوى في قرية بريف حلب الشمالي (درع الفرات)، ورشّح الأسماء التي تحرسهم، وتؤمّن مستلزماتهم الحياتية، أراد إشعار جنوده بالأمان والاهتمام حتى لا تسرح عقولهم في مصير عوائلهم فتشتت تركيزهم، أراد أن يتفرغوا لصد اجتياح العدو بكل همتهم وعنفوانهم وبكل ذرة من ذراتهم.

ما فعله كان لأجل ألا يترك شيئاً للصُّدف، ويتجنّب الأعمال الاعتباطية عندما تسوء الظروف.

١٥

خارج الأسوار

خارج الأسوار

السخيُّ قريب من الله، قريب من الناس، والبخيل بعيد عن الناس بعيد عن نفسه.

سخر كل ما تمتلكه الكتيبة لخدمة باقي الفصائل الثورية، لم يعش حبيس أسوارها، صاغ قانونا يجعل مقاسمة الثوار لكتيبته حق مشروع، فالعامة والخاصة من الناس عنده سواءٌ في المعاملة.

إذا طال القصف بقعة ما، حَرّك سائق الإسعاف إليها.

إذا سمع عن كتيبة فقيرة، سارع لدعمها.

إذا احتاج طالبٌ إلى رسوم التسجيل في الجامعة، هب لمساعداته

إذا: ظرف حاجة مبني على السكون في محلّ الخدمة.

خارج أسوار الكتيبة لا زال هناك خِدر لا يعرف بابه إلا أناس بعدد أصابع اليد الواحدة إلى حدّ اللحظة التي أكتب فيها ما تقرؤون، لم أستطع أن أكشفه إلا بفضِّ المغاليق، وفك الشيفرات الخاصة به.

كلّما اكتمل الشهر، أُرسل له مبلغ مقداره ألف دولار لشخصه من بعض أقاربه باستمرار، لقد كانت فرصته لبناء زورق النجاة من معدن الخبيثة الصالحة بينه وبين ربه، يصرفه على كل مُعْوِز خارج أسوار كتيبته.

اجعـل عامـة أصحابـك في ليــن الكلمـة بمنزلـة الخاصـة، من غير أن تنقص أحـداً من ذوي البلاء حقّـه وثوابـه، ولا تسـاوي بـه مَن لا بـلاء له.

مختصر سياسة الحروب للهرثمي، المؤسسة المصرية العامة للطبع والنشر، ص١٦

١٦

مكالمة هاتفية

مكالمة هاتفية

ذات يوم بينما أنا نائم ومرهق من التمارين في معسكر إعداد قد بعثني إليه صاحبنا مدته ثلاثة أشهر، اتصل بي في ساعة متأخرة من الليل، إحساس خالجني أنّ أمراً ما ينذر بسوء، رفعت السماعة ففاجئني صوته وهو يجهش بالبكاء قائلاً:

شبابي شبابي...

لم أفهم سوى لهجة متألمة حارقة، فلقد كان انفعاله وشهيقه يطغى على الكلمات، لم يكن بمقدوري تمييز ما يقول بوضوح

قلت: على رسلك.. هون عليك، ما الخبر؟

صمتَ للحظات ثم عاود البكاء ثانية، واستمريت بتهدئته حتى سكنت نفسه ثم سكت هُنيْهة قبل أن يقص عليّ الخبر.

أصيب شاب من الكتيبة في عينه اليمنى أثناء الاشتباك مع العدوّ بمعركة تل هواش، وبينما كان صاحبنا يرقب المعركة ومجرياتها بإمعان، فزع من سماع خبر إصابة ذلك الشاب على اللاسلكي، استدعى أحد زملائه من القادة وفوضه إدارة مهامه، ثم هبّ على درّاجته مندفعاً لإسعاف المصاب، لكن قائد العمليات عارض ذهابه وأخبره أن البقاء بجانبه أكثر أهمية، ثم أرسل شاب أخر إلى المصاب.

سجّلت آلة التصوير التي كان يحملها أحد المجاهدين بجانب المصاب لحظة الإصابة بصاروخ موجّه متطور قد تسلمه جيش النظام الأسدي من الجيش الروسي، الذي حول سوريا إلى ميدان اختبار لأسلحة المصانع الروسية.

أعاد صاحبنا مشاهدة الفيديو عدة مرات، دقق في التفاصيل الصغيرة والكبيرة، كرّه للوراء وأعاد بعض اللقطات أكثر من مرة، لاحظ خطأ في تموضع جنوده حول الساتر، ما يعكس قلة الخبرة والمهارة اللازمة للسيطرة على ميدان الاشتباك، ليقرر في الحال البحث عن طريقة لإرسال بعض مجموعات الكتيبة إلى معسكر احترافي متقدّم بأقرب فرصة ممكنة، وهذا ما جعله يتصل بي لمناقشته معي تلك الليلة.

لا زالت الحالة الصحية للمصاب في المستشفى غير مستقرة، اتصل به المشرف الطبي للكتيبة، وأخبره أنه سيخضع لعملية جراحية في عينه، فأجابه: لا تتردّد، ولو كلّفت مائة مليون، ولو اضطررنا لنقله إلى أمريكا.

تعمدت أن أقص عليكم هذا الموقف لأنقل لكم كيف كانت علاقته بين من يعملون تحت قيادته، كم هي مليئة بالتراحم وخالية من التعاقد، كان لهم أباً، وأخاً وصاحباً قبل أن يكون قائدا.

قال محمد بن كعب القرظي لعمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى:

إنْ أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً، فوقِّر أباك، وأكرم أخاك، وتحنَّنْ على ولدك.

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج٩ ص١٥٠ طبعة دار الكتب العلمية

هكذا هي الحياة بمشقتها وآلامها، في كل عام نفقد أشخاص نحبهم، ونحِن إلى ذكريات مضت وانقضت، ونتشوق إلى أماني لم تتحقق، يتبادل الحزن والفرح زيارتنا على طول العام، لم يكن بمقدورنا اختيار أحدهما دون الآخر ليكون ضيفاً علينا، كانا يأتيان بإرادة الله وترتيب من أقداره، وكما زارنا الحزن في تلك المعركة، زارنا الفرح في مرات أخرى كثيرة، وهذا ما جرى في إحدى تلك الزيارات:

دعا أحد جنود الكتيبة صاحبنا إلى زفافه، ومن عادته في كل عُرس أو مناسبة سعيدة تخص جنوده يحضرها، وتتعالى فيها صيحات الابتهاج على لسانه: "قائدنا للأبد سيدنا محمد" والشباب يرددون الشعار من خلفه، كانت عيونه تلمع في بريق يعكس حبا عميقاً وفرحة صادقة، يشبه لحد كبير حالة ابن باديس عندما أجاب المندوب الفرنسي بسوريا قائلاً: "لن تستطيع ذلك، فأنا إن كنت في عرس علّمت المحتفِلين، وإن كنت في مأتم وعظت المعزِّين، أو في القطار علّمت المسافرين، أو في السجن أرشدت المسجونين، فأنا معلِّم مرشِد في جميع الميادين، فالأمة استجابت لداعي الله الذي يحييها، وخيرٌ لكم أن لا تتعرّضوا لها في دينها ولغتها".

لكن هذه المرة وبسبب اجتماع عسكري طارئ دُعي إليه في مدينة إدلب التي تبعد عنه خمسين كيلومتراً، اضطر صاحبنا للغياب عن زفاف ذلك الشاب، وأوصى مرافقه بإرسال عدد من سيارات الكتيبة إلى العرس، بينها سيارته الشخصية؛ للتخفيف عن الشاب من أعباء الزفاف، وفي المقابل استقل صاحبنا درّاجة نارية لإيصاله إلى مكان الاجتماع وفي قلبه لوعة، يريد البقاء لتأدية الواجب، لكنّ واجب أكبر دفعه للمغادرة، فاته الحضور ولم يفته جبر الخواطر.

١٧

شوهد من قبل

شوهد من قبل

أحياناً ينتاب الإنسان شعور كأنه عاش الموقف الحاضر من قبل، كل تفصيل بعينه، أحداث جرت في الماضي تعاد اليوم.

أيام الغزو الأمريكي للعراق كان لأبي بكري نصيب من الجهاد الدائر هناك، ولما انتظم في مفارز القتال، دَهمته موقعة الفلوجة، فكان من أهلها الثّابتين الذين قدّر الله لهم الحياة.

أحداث عاشها بالفلوجة تعكس مجريات اليوم في ببلده، وخلال فترة وجوده في العراق ووسط زحمة الفصائل المقاتلة واختلاف توجهاتها، حرص على توجيه بندقيته ضد الاحتلال الأمريكي فقط وملازَمة علماء السنة المشهورين بين عموم الناس ووجهائهم.

دُعي مرة مع أحد زملائه إلى حضور جلسة حضر فيها عدد من المجاهدين ووجهاء القوم، التفت يميناً ليتعرّف إلى من بجواره، وبدأ بالحديث معه والتعرّف إليه باللهجة العراقية:

شلونِتش... شاخبارِتش... أمورِتش.

وحرف "تش" قبلها كسرة في آخر الكلمة عند أهل تلك المنطقة صيغة تقال للمرأة دون الرجل.

كلّما تلفظ أبو بكري بكلمة امتقع وجه الرجل الذي يلبس العقال فوق رأسه وتغيّرت ملامحه، دار نحو زميله فوجده قد أخفى وجهه بكفّه وجسمُه يرتجّ من الضحك... لم يفهم ما يحصل بين ضاحك وكامد!

بعد أن انفض المجلس، جلس إليه صديقه وشرح له خطأه، فسارع إلى الرجل الذي كان يجلس على يمينه واعتذر منه في مشهد فيه من الطرافة ما فيه من البراءة والصدق، ليترك خلفه مواقف وذكريات تتجدّد معه بالثورة في بلاد الشام.

١٨

لعلَّ وعسى

لعلَّ وعسى

كل شيء في الحرب بسيط، إلا أن أبسط الاشياء صعب[1]...

ليس الخبر كالمعاينة، ومن لم يذق لهيب الحروبِ لم يكن له الحق أن يتكلم عن الجراح، وجودك في ميدان الحرب يختلف تماماً كما بين الثرى والثريا عمّا إذا كنت متكئا تشرب القهوة وتجول ببصرك في صفحات التواصل الاجتماعي، وتتمنى لو أنّك تدخل شاشة الهاتف، لتنتقم من العدو الذي لم يوفر فرصة لانتهاك محارم الله إلا واستغلها بروح خبيثة ودم بارد، فتشفي غيظاً لعلّه غير صادق، فالصدق يتبعه العمل.

في إحدى المرات وخلال إحدى نوبات الحرس أُصيب أحد جنوده برصاصة خرجت من نيران بندقية العدو فاستقرّت في رأسه، ليخرَّ على الأرض، يَتشَحَّطُ بدمائه، بينما قلبه ما زال ينبض في حالة يصارع فيها الموت.

استدعى صاحبنا سيارة الإسعاف، وترك جنوده يحملون المصاب بداخلها، بينما انطلق هو على متن سيارته مسرعاً، ليخفّف من ازدحام السير على الطريق؛ كي لا تعرقل وصول المصاب إلى المستشفى، لو أبصرته كأنه ثكلى تفدي طفلها وتحاول إنقاذه، يلوح بيده خارج نافذة السيارة، وبيده الأخرى يضغط على الزمور، وكلّه أمل أن يتمكّن من إنقاذ حياة المصاب.

كلّما بدا له الطريق خالياً طار بسرعة كالبرق، وإذا وجد زحاما خانقا ترجل من سيارته وهرول بين الزحام يصرخ وينادي ليفتحوا المجال لمرور سيارة الإسعاف، كان يبذل كل ما يستطيع ليُسهِّل نقل المصاب إلى المشفى.

---

١ كتاب "عن الحرب" كلاوزفيتز- ترجمة سليم شاكر الإمامي-ص ١٦٥

وصل المصاب، وأدخلوه قسم الطوارئ، خرج الطبيب بملامح تخبر أنه يحمل أنباء غير سارة، اقترب الطبيب من أبو بكري وأخبره أن الحلول الإسعافية لم تنجح في إنقاذ الشاب وأن الروح فاضت إلى بارئها فاغرورقت عيناه بالدموع، حاول أن يُقنع الطبيب أن يكرر استخدام الصدمات الكهربائية مرة أخرى لعلّ وعسى، لكنه الأجل إذا جاء لا يُؤخَّر.

١٩

التوءم

التوءم

كانت له رؤية وفلسفة خاصة للحياة، فهي بالنسبة له معركة بين الحق والباطل، وما يجب ولا يجب، كان يراها تدافعا بين الناس نحو تحقيق مصالحهم، ولذلك يتوجب على الإنسان أن يوجه سعيه وجهده إلى تحقيق مراد الله في الأرض ونيل رضوانه، بطاعة أوامره وتجنب نواهيه.

عَلم أنَّ المعركة في أصلها أقدم بكثير مما يتخيله الناس، كان مقتنعاً أنَّ جذورها ترجع إلى بداية الخلقية، إلى اللحظة التي سوَّلت فيها نفس قابيل قتل أخيه، واستمرت إلى يومنا مع بوتين والأسد وحلفائه.

وحتى يهنأ الإنسان بالسلام وينعم بالأمن، يجب عليه أن يجرب آلام المعركة، عليه أن يمر بمرحلة المغامرة، حتى يفهم معنى المقامرة، عليه أن يقفز إلى ميدان التجارب ليتصرف بحنكة، كان على دراية تامّة بأن الصراع حقيقة شرعية وسنة كونية ومروية تاريخية.

من مقولاته: "الحياة والسلاح توأمان".

جاءه قنّاص الكتيبة ومعه قنّاصته المتواضعة ليُخبره عن تحطُّم بدنها الخارجي، فتحطّم معها فؤاده وكأنها فاجعة عصفت به وبلاء حلّ بساحته، حبس أنفاسه قليلاً وذرفت عيناه دموع الحسرة والأسى.. يفكّر في أوقات الفاقة والعوز التي تمرّ بها الكتيبة، وعمّا إذا أمكنه تعويضه بشراء قنّاصة بديلة.

داهمه شعور مفاجئ بالحاجة إلى البكاء، ومن شدة بكائه لأجل قطعة سلاح يعلم قيمتها، ظنّ القناص أن جرحا قديما أوجعه أو هامةً لدغته، فسأله في قلق عما إذا كان كل شيء على ما يرام؟ فأشار برأسه بالإيجاب، فيما فؤاده يعتصر من

الخزن ويجيب: لا، لكن هو توءمه الذي تعرّض لوقعة فانكسر بدنه، ليشعر بوجعه ويُحِس بأنينه.

طلب منه القنّاص أن يشتري له قناصة حديثة مع عدّتها الكاملة حتى يقدر على العمل بطريقة أفضل.

أجابه: سأفعل ولو كلّفني ذلك حياتي ثم عانقه.

قال القناص: اعذرني على رائحتي الكريهة من العَرَق.

أجابه :أوَنأنف من رائحة في سبيل الله؟!

يقول القنّاص: لم أفهم في البداية لماذا كان يمنعني عن التجول في القطاعات الأخرى ورصد الأهداف منها ليقيّدني على جبهة واحدة.

علم بعد مرور الأيام أنه كان يحرص على سلامته، ويُعدُّه ليكون اللَّبِنة الأولى في مجاله.

فقد أرسله بعد عدة أيام إلى معسكر متقدّم يشرف عليه شباب مهاجرون استمر فيه ثلاثة أشهر، وفي نفس الوقت سارع صاحبنا إلى تجهيز قطعة احترافية يجول بها على أهل الاختصاص في التصنيع والتطوير، لتطوير سلاح احترافي معدل يتفوق على سابقه، وكان يمضي الساعات مع خبراء التصنيع يتابع معهم باهتمام أدق التفاصيل حول طريقة تركيب القطع والأجزاء الإضافية على القناصة.

بينما القناص يتابع تدريباته بلغه خبر استشهاد قائده، وبعد أن ذهبت إليه لأقنعه على إتمام دورته التدريب إلى نهايتها، قابلني بالرفض وأصرّ على الانسحاب منها، فقلت له:

يا تُرى هل سيكون الشهيد في هذه اللحظات وهو عند ربه نحسبه -والله حسيبه- راضياً بقرارك؟

تجمّد في مكانه.. ملأتْ مسامعه دقّات قلبه وأنفاسه، ليراجع قراره ويعقد العزم على إكمال مشواره.

إن أهمَّ ما يحتاج إليه الجندي معرفته تلك المفاهيم التي تحرّكه على بصيرة وفهم عميق لماهية الحروب، فإتقان التكتيك والتعامل مع السلاح ما هي إلا آخر صورة بسيطة من صور الصراع.

وبعد أن فَرغ من الدورة وجد ما وعده بها أميره جاهزةً تنتظره بحلّة لم تخطر على باله! ليبقي وعده مغروساً في الأرض وروحه معلَّقةً في عالم المحلِّقين.

٢٠

الوقف

الوقف

كلّما اشتدت الحرب وقامت على ساقها، تصاعد أعداد الشهداء ضدّ جيوش الشرّ والاستبداد، وكلّ قطرة دم سقطت منهم أنبتت جيلاً يمثّل صيحة، وزئيراً في وجه الأعداء.

هم تركونا، وذهبوا إلى ربّهم، لكنّهم يعرجون على دنيانا ينظرون إلى رفقاء دربهم، ويقولون من يبلِّغ إخوانَنا عنَّا أنَّا أحياء في الجنةِ نُرزق؟ لئلا يزهَدوا في الجهادِ وينكلوا عن الحربِ.

تبقى عوائلهم ذكرى لنا تتجسّد في زيارتهم والاهتمام بحالهم، وقضاء حوائجهم.

قال نبينا صلى الله عليه وسلم في أم سليم:

«إني أرحمها؛ قُتل أخوها معي»[1].

قدحت في ذهنه مرة فكرة إنشاء مشروع يكون وقفاً يعود ربحه على عوائل الشهداء، فابتاع شاحنة تحمل صهريج مياه بما يناسب قدرته على الشراء، وتحمِل معها عبء الحياة، وكلف لقيادتها سائقاً ليتجول فيها بين الأحياء، ينتقل من بيت لآخر يقضي عليها الساعات الطوال دون كلل ولا ملل.

في أول شهر بلغ دخله أربعمائة ألف ليرة سورية، أول ما سمع الخبر فرح وسُرَّ كثيراً، ليشدّ من همّة المجاهد سائق الشاحنة، ويلقي على مسامعه كلمات تُشعره بقدر الأمانة التي يحملها على عاتقه تجاه أبناء شهداء الكتيبة.

---

١ () أخرجه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

٢١

المرافقة

المرافقة

كثيرا ما كان يحرص أصحابه ممن يرافقونه في رحلاته وتنقلاته حينما يوصلوه ليلاً إلى داره أن ينتظروا قليلاً قبل المغادرة حتى يروه دخل إلى منزله وأغلق بابه خلفه، ليطمئنّوا على سلامته قبل المغادرة، وبرغم النبل العالي الذي ينطوي عليه هذا الخلق وحسن مقصده لكن ابو بكري كان يأبى في غالب المرات إدخال يده في جيبه لإخراج مفتاح الدار، ويبقى ينتظر هو الآخر في مشهد طريف حتى يغادر مرافقه المكان بالسيارة، ليغلق على نفسه باب العُجب بسلطانه أمام جنوده ولئلا يجعل له عليه مدخلاً.

بقيتْ عادة الالتفات خلفه ملازمة له كلّما هم لدخول بيته، كان يودع مرافقه بنظرات تحمل في طياتها معان وإشارات لعدم رضاه عن ذلك التصرف.

نقل عن الأوزاعي أنه قال: "يهلك السلطان بالإعجاب والاحتجاب".

إذا أردت أن تعرف قيمة القائد، فارجع إلى حرص رجاله عليه. دُعي صاحبنا مرة إلى وليمة يرأسها أحد قادة الفصائل الكبيرة بحلب، فكنت ممن رافقه إلى المكان، وبعد أن دخلنا بدأت تتوافد الضيوف من قادة الكتائب والسرايا، لم يطل المكوث حتى فُرشت أطباق الطعام الشهية على الأرض بلونها الأحمر، وما إن امتدّت الأيادي إلى الأطباق لتحْمرَّ معها العروق في المقل، حتى طلب صاحبنا من الحضور إدخال مرافقيهم إلى الوليمة بدل وقوفهم بأعداد كبيرة على الباب يحرسون.

لم يكتفِ بالكلام فقط، فقد ترك مائدة الطعام وتخطّى الرقاب وتجاوز الحاضرين، ليتجه نحو الباب متبسما لهم، ثم ألحّ عليهم كي يشاركوهم الطعام.

من أخذ بقلب الجندي حبّاً فقد امتلك زمامه، وكما قيل: "جبلت القلوب على حب من أحسن اليها". وإذا أردت أن تعرف قيمة الجنود، فارجع إلى حرص القادة عليهم.

إنّ من الخطأ الاعتقـاد بأنّ الرحمة والأدب يتنافيان مع السـلطة، ولا تبنى السـلطة الحقّـة إلا على المحبّة الناجمة عن العدل والرحمة والإنسـانية.

ج. كورتوا – لمحات في فن القيادة ص٧٧

٢٢

وجبة الشاورما

وجبة الشاورما

استطاع العدوّ تدمير البيوت، ودكّ الجبال، واغتصاب المقدسات، وقتل الأطفال... لكنّه لم يتمكّن من قتل الهمة داخل أرواح المجاهدين المؤمنة، ولا انتزاع الإيمان من قلوبهم المتعبة، ولا تجريدهم من القوانين الربّانية وإبدالها لتدنيسهم بقوانين الحرب المتوحشة.

إنّ الإنسان لو خُدش عرضه قيد أنملة، لتقطّعت نفسه وتمنّى أن يقبض على الجاني ويمزّقه إرْباً إرْباً، وراحت تتقلب على صفيح ساخن من الهواجس والأماني المكبوتة...تنسج في خيالاتها أشد صور الانتقام والتعذيب وحشية، لينزلها فيمن تجرأ وتعدى على حرماته، هي أفكار ليس من المألوف أن ترد إلى الذهن وتخطر على البال في الأحوال الطبيعية، لولا رحاب الجهاد وديباجة أحكامه، كثيرا ما تفرض قواعدها الخاصة فتنعكس الصورة، وتنقلب الموازين، وتتبدل المعايير.

في سنة ٢٠١٥م وفي معارك قرية الملاح وقع أحد جنود جيش النظام في يد صاحبنا أسيراً، فعاد به إلى مقرّه ليسجنه حتى يُنظر بعد ذلك في أمره.

كلّف أحدَ المجاهدين بحراسته، ثم ذهب هو إلى المطعم وعاد وقد اشترى للأسير وجبة شاورما مع توابعها، وأما المجاهد فقد كان حظه من الطبخ ذلك اليوم برغلاً جافّاً لا شيء معه.

جلس المجاهد عند بوّابة الغرفة وهو يتناول البرغل حافياً، بينما القاتل يأكل الشاورما ويشرب البيبسي داخل الزنزانة.

إنّه الطوفان الذي يفيض من الداخل لا سيل يداهمه من الخارج، إنّه التوازن النفسي والراحة التي لا تتكوّن إلا في أعماق الإنسان، هي نشوة اعتزاز تجعل منك إنساناً ينسى، يفكّر في المستقبل المشرق ويتخطّى الماضي المعتم.

٢٣

الطمع

الطمع

أصيب أبو بكري بحادث سير في خطوط الجبهة وانكسر حوضه، وبقي على السرير أشهراً معدودات، وفي وقت كان فيه ثوار حلب مرغمين على اختيار التهجير من ديارهم بتاريخ ٢٠١٦/١٢/١٤م كملاذ وحيد بديل عن الموت مخذولين تحت حمم النار والجحيم التي كانت تلقيها أسراب من الطائرات قابلها صمت دولي متواطئ، تذكّر صاحبنا بلده الأم الذي تنكّر له وقمعه وسجنه فارتعش جسده المفتول والمكور على السرير واختنق بدمعة الحنين الذي احترق به من الشوق لابنته وزوجته اللَّتَين انقطعت أخبارهما بعد أن انتزعهما منه أبو الزوجة معارضاً لموقفه الثوري، لينتقلوا للعيش في مكان مجهول لم يستطع صاحبنا إيجاده في بداية قيام الثورة.

طلب أن يقلّوه إلى المكان الذي سيُستقبل فيه أهالي حلب المدينة المهجرين؛ فالحنين لأصدقائه ورفقاء دربه مستعر داخل خلجات نفسه، والأهم عنده جبر خواطر شعبه.

قالوا له: إنك لا تقوى على المشي.

لكن حين يشتاق القلب، تهبّ الجوارح ملبية وخاضعة لإرادته.

ذهب صاحبنا مباشرة إلى المكان المحدد واستقبل العوائل وهو يتهادى بين شابَّين يحملانه بين العقبة والأخرى، وقد جهّز لبعض العائلات المأوى والحاجيات.

كان إذا أراد الذهاب إلى وليمة أو عزاء أو حدث يخصّ جمعاً من عامة الناس، أخذ معه جنوده ليشاركوا مع الناس شعورهم.

سألته يوماً: لماذا تصطحب معك أفواجاً من المجاهدين تلو أفواج؟

أجابني: طمعاً في أن أنقل لهم صور الجهاد والمجاهدين.

هؤلاء هم الرجال الذين عرفوا الطريق وبلغوا باب المسؤولية، استشعروا لذّة الجهاد وتعلّموا مفاهيمه وعملوا بنصوصه، حتى في أصغر أعمالهم إلى أن وصلوا لمرحلة البصيرة.. نعم يصلون لمرحلة يعلمون فيها متى وأين وكيف يجاهدون.

٢٤

صندوق الكرز

صندوق الكرز

الجهاد رحلة مميّزة، غزيرة المشاعر والذكريات، مليئة بالإثارة في سفينة تتلاطم فيها أمواج المكاره والمتاعب، تُحصد فيها الأرواح، وتُحبس فيها الأنفاس، يبحث قبطانها على شاطئ الحرّية ليرسو عليه ويطوي صفحات من الهم والتعب.

عندما تخرج في رحلة، فإنك تسعى على أن تفعل سائر ما تريد، لكن قبطاننا ابو بكري جعلنا نريد ونرغب بما نفعله، فالبحر يهيج، لكن السفينة في يد الربّان يعرف كيف يقودها، علَّم الركّاب كيف يَسلمون من طوفان نوح وهلاك فرعون بالغرق.

انطلاقا من المفاهيم الأخلاقية التي لطالما حرص على تعزيزها في نفوس جنوده، منع صاحبنا سائر جنوده المساس بأيّ شيء يجدونه على الجبهة ولو بلغت قيمته قدر إبرة صدئة محتقرة تحت التراب، أثار منعه حفيظة أحد المشايخ المرابطين فاعترض عليه.

وقبل استعراض الحوار الذي دار بينهما، لابد من الإشارة إلى أن هنالك شيخا متخصصا بالعلم الشرعي برفقة كل مجموعة عسكرية منضوية تحت قيادة صاحبنا، حيث يؤم الشيخ المرابطين في صلاتهم ويعظهم ويحرس معهم طيلة نوبتهم كأي واحد منهم ويرجعون إليه للفتوى عند الضرورة، كان وجوده برفقة كل حظيرة بمثابة ميثاق غليظ ومرسوم مقدّس عند صاحبنا منذ أن قام بتشكيل كتيبته.

وبالعودة للحوار الذي دار بينهما قال له الشيخ: يحقّ للمجاهدين قطف الثمار وهم على الجبهات القتالية، فلو تُركت دون قطف لضاعت وتلفت، ونحن أولى بها من أن نتركها للدّود وهوام الأرض تزحف إليها فتلتهمها بمجرد أن تسقط

على الأرض، واصل الشيخ حديثه يستشهد بأدلّة بين نصوص شرعية وقياس فقهي، ليبرهن أنّ وجودها كعدمها.

أجابه صاحبنا قائلاً: درء أبواب المفاسد أولى من جلب المصالح يا شيخ.

لم يقتنع الشيخ بكلامه، لكن صاحبنا علم كيف يقنعه دون الخوض في جدال ربما قد يطول وبينهما جمع من الجنود يصغون لحديثهم.

قال له صاحبنا: إذن فلتعتبروا الامتناع عن قطف الثمار أمراً عسكرياً عليكم تنفيذه طاعةً لربّكم، وما كان من الشيخ إلا أن استجاب لأمره.

وفي إحدى المرات مرّ على جنوده وهم يكسرون اللوز المتساقط على الأرض بالحجر، فما كان له إلا أن منعهم من ذلك، ثمّ ذهب واشترى لهم اللوز وفرّقه عليهم.

يتكرّر الحدث في مشهد جديد، بينما هم على جبهة ساخنة في قتال داعش في ريف حلب الشمالي سنة ٢٠١٤م، رأى صاحبنا بعض جنوده يقطفون الكرز، فذهب إلى قائدَ حظيرتهم وأعطاه النقود ليبتاع لهم صندوقاً من الكرز بدل الكيلو.

أراد أن يجعل مراتع الرباط ومحافل الجهاد مدرسة لتعليم الحرية، وشِعبا لتدريب النفوس وميدانا لتغذية الروح وإشباعها

هو يأمرهم وهم يطيعون... أين الحرية إذاً؟!

مهلاً، فالحرّية هي تلك الكلمات العذبة والمواعظ الحكيمة والنصائح الودودة التي تنسكب في قلوبهم كالماء الرقراق في الكأس الشفافة ليعتقهم من سجن الشهوة وسلطان الهوى وليزيحوا كل آلهة بينهم وبين الله فلا يبقى بينهم وبين ربهم أحد، ولا يحول بينهم وبين الاستجابة لأوامر الله شيء من نزوات النفس وصيحات الغرائز وانحراف العقول..

في رسالة كتبها عمر الفاروق إلى أبي موسى الأشعري -رضي الله عنهما- قال:

"أقـمِ الحدود ولو سـاعة من نهـار، وإذا عُرض عليك أمـران أحدهمـا لله والآخـر للدنيا، فآثـر نصيبك من الآخـرة على نصيبـك مـن الدنيـا؛ فـإنّ الدنيـا تنفد والآخـرة تبقى".

وختمها بقوله:

"فإيـاك يا عبـد الله أن تكـون بمنزلـة البهيمة مرَّت بـوادٍ خِصْـب فلـم يكـن لهـا هـمّ إلا التسَـمُّن، وإنّما حَتْفهـا في السِـمَن. واعلـم أنّ العامـل إذا زاغ زاغت رعيّتـه، وأشـقَى النـاس من شَـقِيت بـه رعيته".

حديث صحيح رقم ١٤٢٠٩ منتخب الكنز للمتقي الهندي

٢٥

اللهُمَّ فاشهد

اللهمّ فاشهد

علاقة صاحبنا بالشفافية في توثيق الأحداث العسكرية والمعاملات الإدارية لا تنتهي، بل بلغ مبلغاً عظيماً في ضرب أروع الأمثلة عن الوضوح والاستعداد للمساءلة.

في إحدى المرّات سأله الإداري: لماذا التوثيق وكلّ ما ينفق هو من جهدك، وكثير منه شخصي، ولا يخص الجنود معرفته؟

فأجابه: حتى لا أكونَ في موقف شكٍّ، فالبابُ الذي يدخل منه الشك تخرج منه الثقة.

ثمّ أردف قائلاً: "اللّٰهُمَّ فاشهد".

بماذا تُذكّركم هذه العبارة؟

نعم إنّه عمر رضي الله عنه.

كان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إذا استعمل عاملاً كتب عليه كتاباً، وأشهد عليه رهطاً من الأنصار: ألّا يركب بِرْذَوْناً، ولا يأكل نَقِيّاً، ولا يلبس رقيقاً، ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ثم قال: اللّٰهُمَّ فاشهد.

رأينا في منهجه أنّ التوثيق مهنة الشريف، وهي انعكاس حضاريٌّ عاشه في حياته الجهادية، ومع كل حدث عسكري يوثق تفاصيل الخسائر والإنفاق والغنائم والتسليح والآليات، وكلّ ما يُصرَف داخل الكتيبة وخارجها.

أجاب عن الأسئلة التي قد تراودُ خاطر أصغر جنديٍّ "من أين وإلى أين ولماذا"؛ حتى إذا وافته المنيّة وجاءه الأجل يكون قد صنع من الماضي حاضراً في أعين الجميع.

٢٦

كلمات وآثـــار

كلمات وآثار

ما أعظم الأقوال حينما تصدق الأفعال، ما أجمل الاستجمام في حضرة حروف تسبك أنبل الكلمات، وما أعظم الكلمات حين تصدقها الدماء.

كلمات حاضرة على لسان صاحبنا دوما، يغذّي بها أرواح جنوده، ما إنْ يوزّع منحةً مالية أو دعماً إغاثياً إلا ويردّدها "هذا من صدقكم وحسن نيّاتكم، وهو إليكم"؛ ليتجرّد من حوله وقوّته ويلتجئ إلى حول الله وقوته، كلمات دُوّنت في جدران القلوب وأحدثت أثراً في العقول، لتبقى حيّة تعيش بين ذاكرة الجنود.

كل كلمة لا تحمل نشاطاً معيّناً هي كلمة فارغة، كلمة ميتة مدفونة في نوع من المقابر، نسمّيه القاموس.

مالك بن نبي، ميلاد مجتمع

٢٧

الغريب

الغريب

اعتقل صاحبنا مع بداية الثورة السورية في مدينة حلب، وبعد أن فك الله أسره انتقل من المدينة إلى ريفها بعد البلاء الشديد للعيش في عالم الثورة وعبير الحرّية مع ميلاد جديد بدأ حينما تعرّف على جماعة من الأخيار في قرية أورم الكبرى، وبين تلك المرابع، علا نجمه وبرزت حنكته وعُيِّن قائداً على كتيبة الفتح المبين، ثمّ بدأ بالعمل على إرساء دعائمها وتعزيز ركائزها على قاعدة صلبة، لتنطلق مسيرته الثورية في صناعة الرجال كالشامة بينهم مع اختلاف لحن ألسنتهم وألوان طوائفهم، محبوباً عندهم، مسموعَ الرأي، مُهاب الشخصية، ظلّ قائداً لهم إلى أن وافته المنيّة.

من أراد عزّاً بلا سلطان وكثرة بلا عشيرة وغنىً بلا مال، فلينتقل من ذلّ المعصية إلى عزّ الطاعة.

طريق الهجرتين ٢٣٢/١.

٢٨

حقُّ اليقين

حق اليقين

مع أول ضربتين يهوي فيهما بالفأس على الأرض، تهشّ الجلود الداخلية، وتنفلق كتل التراب الصلبة على وطأة الضربة، ليتفجر من المشهد العجيب تحت مرأى المرابطين العزيمة والهمة العالية، ويتنافسوا في تحصين جبهتهم القتالية ولسان حاله يقول لهم: ما أنتم بأقوى منّي على الحفر، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكم.

وإثر المسؤولية والمشاغل الكثيرة على عاتق صاحبنا، أوكل المهمة لأحد المجاهدين للإشراف على العمل بعد أن خصَّص له كل الإمكانات اللازمة لذلك.

وفي مناسباتٍ عديدةٍ قَدِمَ إليه عددٌ من جنوده يشكون وقوع سرقات في المحروقاتِ على يد المشرف الذي عينه، فكان يشكرهم على مبادرتهم ويطلب منهم أن يمهلونه بعض الوقت ليتصرف معه، إذ لم يكن لصاحبنا أن يحكم بعلم اليقين حتى تبلغ عينَ اليقين ويتوثقَ من حقيقة الشكاوي بنفسه.

أولى أبو بكري اهتمامًا كبيرًا بالأمر، وتابع البحث والتقصي فيه بنفسه، كان يخاف التسرعَ في الحكم والتفريط في الأمانة في الآن نفسه، وبقي يتابع الأمر إلى أن تحقق له عين اليقين وصِدق الشكاوي التي وردت، ولكنه لم ينظر للأمر من بُعْدٍ واحد، إذ تقصى وبحث عما إذا كان هنالك أي ظروف دفعت ذلك الشاب لتلك الفعلة، فتوصل إلى ما أكد له أن الشاب يمر بظروف مالية قاسية وصعبة، ما دفعه ليبيع من المحروقات ليغطيَ احتياجاته.

فما كان من صاحبنا إلا أن صرف له مبلغًا إضافيًا ليعيل به نفسه، لينقل المشهد بأكمله إلى مرتبته الأعلى، مرتبة حق اليقين.

وهنا أسردُ لك أيّها القارئ العزيز الفروق في المعاني بين مراتب اليقين عند العلماء:

فالمرتبة الأولى: علم اليقين، وهي انكشاف المعلوم للقلب، بحيث يشاهده ولا يشكّ فيه كانكشاف المرئيّ للبصر.

المرتبة الثانية: عين اليقين، أي مشاهدة المعلوم بالأبصار.

المرتبة الثالثة: حق اليقين، وهي أعلى درجات اليقين، وهي مباشرة المعلوم وإدراكه الإدراك التامّ.

فالقيادة الحقة والقائد العدل هو الذي يرمي إلى إنقاذ الجند من الضعف سواءٌ كان الضعف في دينهم أو دنياهم.

تفقّد من أمور أصحابك جميع ما يعود نفعه عليهم، استزد مُحسنهم بالتكرمة، وقدّم قبل الإساءة إلى مُسيئهم بالمعذرة، واستعتب مقصّرهم بحسن الأدب استعتاب مصلح لهم، غير مغتنم للزلّة، ولا معترض للعثرة، ولا مستريح إلى كشف غامض العورة، فإنّه لا يَصلح للرعية إلا بعض تغابي الراعي عن فلتات زللها.

مختصر سياسة الحروب للهرثمي، المؤسسة المصرية العامة للطبع والنشر، ص١٦

٢٩

ما بعد الرهان

ما بعد الرهان

انضم إلى الكتيبة شابٌّ في عنفوان شبابه يُكنّى بأبي عريب، اسم ارتسم في ذهني أنّ صاحبه مشاغب ومفتعل للمشاكل، لاسيما وأنه قد تناهى إلى مسامعي أنه معروف بالتمرّد والعناد والخوض في كل وادٍ يهواه، يتعامل مع الحياة بلا مبالاة ودون اكتراث للعواقب، لا يعيرها جدّية أو أدنى شعور بالمسؤولية.

أحسست بضيق يجثم على صدري حين سمعت خبر انضمامه إلينا.

ذهبت إلى أبو بكري وأبديت له استغرابي لأسمع منه سبب قَبول ذلك الشاب في صفوفنا!

كانت أسئلتي المتتالية تُخبر عن استياء واضح أشعر به، لكن صاحبنا قابل انزعاجي وانفعالي بالثبات وبالرهان على شخصية ذلك الفتى الوافد، وهو ما زادني حيرة واستغرابًا من طريقته في إدراك وتقدير الأمور.

انخرط ذلك الشاب مع جنود الكتيبة في مختلف أنشطتهم، وبدأ يرابط معهم على الجبهات، ولم تمض عدة أيام قليلة حتى بدأ ما كان قد تناهى إلى مسامعنا عن سلوكياته المتهورة بالظهور، بادر الشاب بتصرفات لا تعكس شعورَه بالمسؤولية ولا بجدارة حمل السلاح والرباط على ثغور العدو، وراح يشاغب على المرابطين، فتارة كان يطلق النيران على جبهات العدو الخامدة دون حاجة ولا تنسيق مسبق مع القيادة، وتارة كان يُفزع المرابطين بمزاح يؤكد افتقاره إلى المسؤولية، وذات يوم أخذ قنبلته وفرَّغها من الموادّ المتفجّرة دون أن يعلم بذلك أحد، ثم جلس مع رفاقه في الكتيبة على تخوم الجبهات، وبدأ يتحداهم ويهددهم بتفجيرها بينهم، ثم ألقاها بين أرجلهم فجأة، فأصابهم الفزع ودبّ فيهم الرعب وتزاحموا يتراكضون باحثين عن النجاة بأرواحهم، فمنهم من قفز

إلى الخندق، ومنهم من استلقى منبطحًا خارج الدشمة، وهبّ آخرون يجرون في اتجاهات مختلفة مذعورين خائفين!

وبرغم فعلتِه تلك، وتصرفات أخرى مشابهة كانت تصدر عنه من حين لآخر، إلا أن صاحبنا أبو بكري لم يتخذ قرارًا بإبعاده عن الكتيبة، بل ولا حتى بقطع حبال الود معه، بل استبقاه معه وعلى مقربة منه، وبات يصحبه في رحلاته العسكرية ومشاغله اليومية، لاحظنا جميعًا أنه كان يتعمد أن يجعله يرافقه في جولاته ولقاءاته وجلساته مع المجاهدين، وهذا ما قد يجعل الفتى يسمع نفس الموعظة أكثر من مرة، وفي عدة مجالس في اليوم. أصبح "أبو عريب" لصيقًا بأبو بكري بشكل كبير، لم نكن نعرفُ الغاية التي تدفع صاحبنا لإتاحة هذه المساحة، ولكن ما أظهرته الأيام بعدها كان كفيلًا بإقناعنا بأن رجلنا أبو بكري، كان أرجحنا عقلًا وأكثرنا خبرة وحكمة.

بعد فترة من الوقت، بدأت تلوح في الأفق تحوّلات في شخصية "أبو عريب"، بدءًا من البنية الفكرية والسلوكية وصولًا إلى القلبية، لقد تأثر الفتى بقائده لحد كبير، وانتقل من غياهب الإهمال إلى مجد الاهتمام، فترك التدخين وسط تشجيع من الجميع وذهولٍ في الآن نفسه، وبدأ تظهر عليه من مكارم الأخلاق ما يرجوه أي مسلم راغب بالآخرة لنفسه، حتى وصل به الحال إلى صار يطرق أبواب معارفه في القرية التي يسكنها ليوقظهم لصلاة الفجر.

خلال فترة وجيزة، تحول "أبو عريب" من شخصٍ غير مبالٍ إلى شخصٍ لا يطيق الجلوس بلا عمل، وأصبح يفيض بالنشاط والحيوية وينفر من الدعة والراحة، تعانق همّته السماء، ولا يحمل من الهموم إلا معاليها وأسماها ويتقي ما سَفَّ منها.

لقد صدقت نظرة صاحبنا وفراسته في المراهنة على همة هذا الشاب والفوز به، وعادت فعززت لدينا ما كنا نعتقده سابقًا بالأساس من رجاحة عقل أبو بكري.

لكن ماذا بعد الرهان؟

في أحد الأيام، توجهنا مع مجموعة من الجنود نحو الجبهة التي كانت قد تجهزَت لأبو بكري وأعدّت له موعدًا مع الساعة التي لطالما انتظرها، لينعتق فيها من أغلال الدنيا وسجنها، ويحلق بروحه الطليقة والطاهرة سماء الخلود.

وصلنا بلدة جرجناز التي تبعد عن خط النار كيلومترات قليلة، كان الليل قد أرخى الليل سدوله وغمرنا بظلمته وهدوئه الحذر، وكنا نسمع بوضوح صوت هدير طائرة الاستطلاع التي كانت تحوم فوقنا باحثة عن أهدافٍ حية أو أجسام متحركة.

مكثنا ساعات في القرية، ثمّ بدأنا بتقسيم المجموعة قسمَين؛ الأولى كانت تحت إمرة صاحبنا، وكنتُ قائدًا للثانية.

في البداية، كانت الخطة أن أدخل مع مجموعتي في اليوم الأول، ثم تتبعنا المجموعة الثانية في اليوم التالي لتحمل عنّا وننال فرصة أخذ قسط من الراحة.

أراد أبو عريب الدخول في اليوم الأول لأنّه لا يطيق الانتظار، لم أستغرب حينها طلبَه وهو الذي عودنا على همته وحماسته العالية، لكنّي رفضتُ طلبه وبررت ذلك بعدة أسباب، أولها أنني غالبًا ما أختار جنوداً سبق وأن خُضت معهم عملاً عسكريًا واحدًا على الأقل، لأن ذلك يُعطي توازناً وثقةً أكبر في الميدان، ثمّ إنّ رواسب الماضي حول أبو عريب طرقت مخيلتي فجأة وحضرت في ذهني وزاحمت صورته الجديدة، فلم أشأ المجازفة، ما جعلني أرفض دخوله معي.

غضب أبو عريب، وبدأ يحوم حولنا، ولكن ليس بيده حيلة، وباتَ حيرانًا لا يملك حيلة على عصيان الأمر، وليس يقوى على البقاء والانتظار يومًا كاملًا.

علمَ صاحبنا أبو بكري ما يدور في بالي، فهَمّ قائلًا:

اجلس أبو عريب ستدخل معي اليوم.

أبو عريب: عمي أبو بكري سأكون معك حتى الموت.

كانت خطى أبو عريب تسوقه إلى أقدار قد ضربت له موعدًا مع الشهادة كان يجهله، ولم يكن قراري ولا قرار أي أحد ليقفَ حائلًا أمام موعد الموت الذي اختاره الله له، تنسّم أريج الشهادة ودليله معه؛ ليكون ذاك اليوم هو يوم الرحيل في رحلة الخلود السرمديّة.. ويلحق به صاحبنا بعد دقائق معدودة.

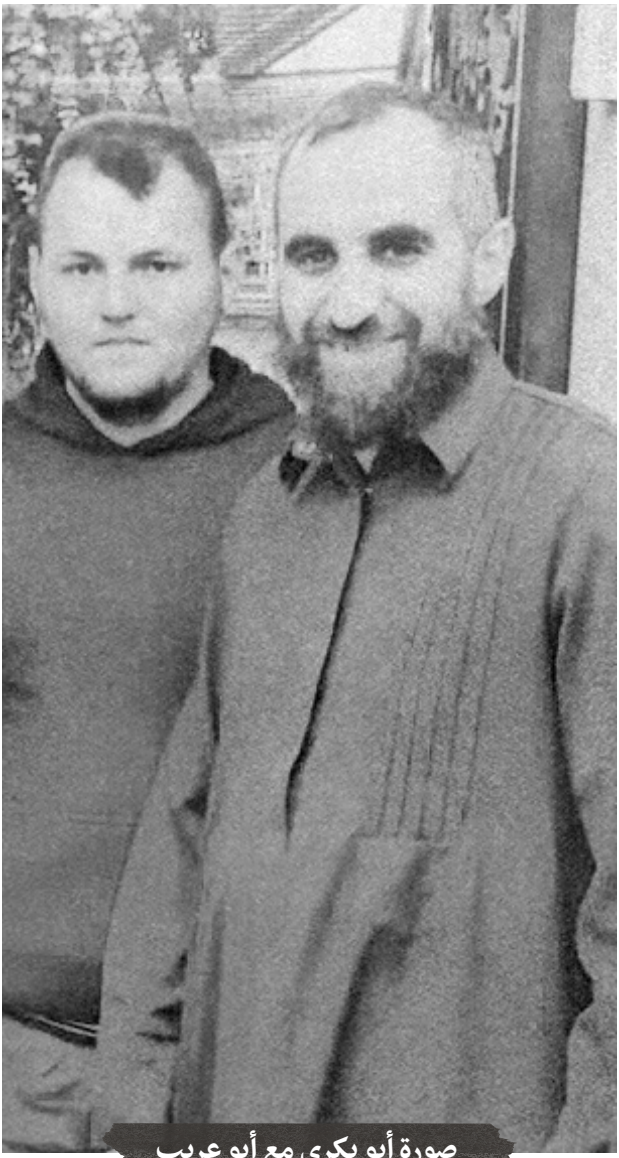

صورة أبو بكري مع أبو عريب

٣٠

الوصية

الوصية

عندما تحضر الناسَ المنيّة، يتدفق شريط الحياة من ذاكرتهم فيمرّ أمام أعينهم سريعًا، وتجفل أبدانهم وتقشعرّ جلودهم، ويغمرهم شعور عميقٌ بالقلق، ويستبد بهم شعورٌ عامرٌ بالندم على سائر أيام الغفلة، وتنتابهم الحسرة على ساعات الزلات والهفوات، وعلى عزيمة كانت مشتعلة فيهم فأطفأتها الكلالة بعد حين، وعلى نخوة كانت تنبضُ بها أرواحهم الدافئة فأماتها الضيم وأبرَدَها الخذلان.

سقط صاحبنا في الخندق مصابا إثر صاروخ اخترق المصدّات الرملية، تناثر الرمل والاسمنت الذي كان في واجهة الخندق في الأرجاء، وارتفعت ألسنة اللهب تلتهم كل ما يمكن التهامه في المكان، وبعد انقشاع سحب الدخان الأولى ووضوح الرؤية قليلًا، سارع المقاتلون الذين كانوا على مقربة من الخندق ونجوا من ألسنة النار إلى مكان الدمار والحريق باحثين عن أي مرابطٍ لا يزالُ به رمق لإنقاذه.

في وسط الخندق، خلف الدشمة المدمرة، كان أبو بكري، مُلقًى على الأرض، مضرجًا بالدماء، بجروح عميقة في مختلف أنحاء جسده، وقد أكلت النار من جلده حتى تفحم، تضرر كفه وساعده الأيمن وانقطعت أصابع يده اليمنى، وتوزعت جروحٌ أخرى على بطنه وصدره وكتفيه والجانب الأيسر من وجهه، فلم يعد قادرًا على فتح عينه اليسرى، كان يتنفس بصعوبة شديدة ويتلفت حوله بعينه اليمنى، في تلك اللحظة بدا كما لو أنه أغمض عينه اليسرى عن الحياة وأبقى اليمنى مفتوحة ليلقي عليها وعلى سيرة الجهاد تحية ووصية وسلامًا أخيرًا.

بجانب أبو بكري، وعلى حبات التراب التي سقتها دماء صاحبنا، كان أبو البراء، المقاتل الشاب، مضرجًا هو الآخر بدمائه وجروحه وقد غاص جبينه في الأرض، لقد فاضت روحه على هيئة السجود، وجسدُه ملامسٌ لجسد صاحبنا.

لقد صعدت روحه الطاهرة إلى السماء فيما كانت جبينه غائصة في الأرض كعابد ليل أطال السجود وقد غمرته السكينة فلم يرفع رأسه عن الأرض، كان كما لو كان يسجد ويقترب.

الجروح العميقة في جسد أبو بكري وأنفاسه اللاهثة الثقيلة أعاقته عن الهبّة لمساعدة جنود اخرين متناثرين على الأرض يمنى ويسرى من أثر الصاروخ، وبعينٍ سبقته إلى الآخرة وعين تودع الدنيا تحامَل أبو بكري على نفسه متحديًا جراحه وأدار رأسه يمينًا وشمالًا ليبصر ما حوله، لم يكن الموت كابوسًا بالنسبة له، بل كان فسحة مرجوّة للقاء من سبقوه في درب الشهادة.

شعر بروحه تتحضّر للارتقاء إلى السماء، وبصعوبة بالغة سارع إلى سحب الهاتف من جيبه ليوثّق لحظاته الأخيرة في حياة لطالما علّم جنوده وشبابه بأنها دار فناء لا دار بقاء، ومحط عبور لا محط خلود.

فتح هاتفه وبدأ بالتصوير يوصي جنوده بأن لا يتراخوا عن الجهاد، يذكرهم بمفاخرهم ويحثهم على أن يكونوا رجال الحرب والمحراب، رهبان الليل وفرسان النهار، لم يكن لسانه فقط من كان يلقي تلك الخطبة الأخيرة، بل كانت كل ذرة من ذراته تهتف بكلماته وتردد عباراته التي كانت تخرج من أعماق قلبه الذي لطالما تحضر إلى هذا الموقف، وصيته الأخيرة التي كان يلفظ كلماتها بصعوبة وأنفاس لاهثة أرخَت على المشهد جوًا من السكينة التامة عزلها عن ضجيج المحيط وصراخ الجنود وأصوات قبضات الاتصال، وأصوات سيارات الإسعاف.

كل الرجال هناك، الجرحى منهم والشهداء والمرابطين، حتى حبات التراب، أصغت في خشوع تام لكلماته الأخيرة وهو يوصي جنوده الذين لم يُكتب لهم المشاركة في صد عادية النظام الاسدي بالصبر والجهاد والثبات إلى أن يصير اللقاء عند حوض المصطفى صلى الله عليه وسلم، وذكرهم بأن لا يغفلوا عن سنّة الله في الاستبدال، كلماتٌ قالها وقد بات على يقين تامّ أن أوجاعه وآلامه ستنتهي بعد قليل.

وبعد عدة دقائق بعد أن تأخرت إحدى عينيه عن صاحبتها، أغمض أبو بكري عينه اليمنى، وسكنَ جسدُه، وفاضت روحه إلى باريها، ونحسبه إن شاء االله أن فتحَ كلتي عينيه في الآخرة.

> **دعّموا الميمنة..**
> **دعّموا الميمنة**

كلمات الجنرال الألماني فون شليفن لحظة وفاته

لطالما كان ميدان الحرب ومضمار الثورات منهلاً لتجارب الأمم وتعاقب الخبرات، وما الثورة السورية إلا حدث أنجبت فيه عدداً من عظماء المحاربين وخرّجت قادة متمرّسين، فاخترت الكتابة عن شخصية كنت قريباً منها، لأنظم ثقافته الثورية في مذكرات مَروية. لذلك كان حقُّ الثورة على طلائعها أن تكتب في صحائفها تاريخ أبطالها، لا سيّما أنّ هذه الثورة المباركة لا يكاد يخلو فيها بيت من مَدَر ولا وَبَر إلا وفيه شهيد.